

الإيمان بالأمة من الإيمان بالله

التكامل في الفكر الإسلامي - بين عناصر المتكون الاجتماعي والمتكون الطبيعي - قائم باعتبار هذا الوجود وبكامله صدر عن الإرادة المباشرة لله .

وهذه الوحدة لا تفترض التناسق والتعاون بين أجزاء الكون المادية فحسب ، بل بين أفراد الإنسان أيضاً ، حيث يصبح الأصل في الوجود الاجتماعي ، هو التعاون والتكامل ، والقول إن الإسلام هو دين التوحيد لا يعني توحيد الله وتوحيد الأديان ، وإنما يعني الوحدة بين القوى الكونية ، أي الوحدة بين العبادة والمعاملة ، وبين العقيدة والسلوك وبين الروحيات والماديات ، بين القيم الاقتصادية وبين القيم المعنوية¹ . وإذا جاز لنا أن نتصور السلام والحبة كجوهر للمسيحية ، استطعنا أن نتصور التوحيد جوهرًا في المبادئ والأهداف والقيم والتعاليم الإسلامية² .

لكن الذي بلور هذا الاتجاه التكاملي وحدد وظيفة الإسلام في العالم هو الإمام أبو حنيفة صاحب المدرسة الفقهية التاريخية المشهورة في رسالاته العالم والمتعلم³ ، يقول المذكور : فالله بعث رسوله ليجمع به الفرقه وليزبد الإلفة ، ولم يبعثه ليفرق ويحرض الناس بعضهم على بعض وهذه الوظيفة التوحيدية للإسلام هي التي تعطي لكل أمر معناه المنطقي وسط المنظومة الشاملة منظومة الاستيعاب والوحدة والتوحيد ، فرسل الله لم يكونوا على أديان مختلفة ، ولم يكن كل رسول يأمر قومه بترك دين الرسول الذي قبله لأن دينهم واحد ، وكان كل رسول يدعو إلى شريعة نفسه وينهى عن شريعة الرسول الذي قبله ، قال تعالى : (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَكُتِبَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعَلِّمَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) (المائدة: من الآية 48) أي في الشريعة وأوصاهم بإقامة الدين هو التوحيد وأن لا يتفرقوا⁴

¹ د . فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص 517

² د . محمد عمارة ، العرب يستيقظون - فجر البقطة القومية ، ج 2 ، بيروت ، دار الوحدة ، ط 3 981 ، ص 50 .

³ نشر الكوثراني ، القاهرة ، 1368 هـ . ص 9

⁴ العالم والمتعلم ص 11

قال تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (الشورى: من الآية 13)

لقد رأى أبو حنيفة أن الدين واحد وهو التوحيد ، والشرائع هي المختلفة ، فإن اتفق الآخرون مع المسلمين في الأصل ، فاختلف الشرائع جزئية ، وعلى الفقيه فهم هذا المعنى الوجدوي للإسلام ، وبالتالي توحيد المجتمع في الداخل على مبدأ الاعتراف باختلاف الشرائع ، بل إن أتباع أبي حنيفة - سيرا مع فلسفة إمامهم - مضوا قدماً فقالوا إن أهل الكتاب الذي تحدث عنهم القرآن ، ليسوا النصراني واليهود ، بل كل من اعتقد ديناً سماوياً وله كتاب منزل مثل التوراة وصحف إبراهيم وشيث ونبوخذ نصر داود⁵ .

لقد منرت معركة صفين ضمير الأمة ، فراحت تبحث عن كل وسيلة لرأب الصدع ، واتسمت تصرفاتها التامريجية الكبرى بهذا الميسم ولم يكن تيار أهل السنة - الذي سمي أهل السنة والجماعة - إلا تعبيراً عن هذه الفكرة ، بل إن القطب الثاني (الشيعة) أكثر حرصاً على هذا المبدأ الجامع وسيرة الإمام الأكبر جعفر الصادق تتضوع أريجاً بذلك ، وكه هي أشكال المعارضة التي أخذت تزين له اللجوء إلى القوة لكن عبثاً ، وأستأذنته للإمام الأعظم أبي حنيفة معلومة (لولا السنن لهلك النعمان) وعلى حد قول أحد الزيدية : (إن الباقر والصادق دعوا الناس إلى الحياة ونحن الزيدية دعوناهم إلى الموت)⁶

وتحكي الموارد التامريجية أن جعفرأ رفض عرض أبي سلامة الخلال بنقل الخلافة إليه ، كما رفض دعوة أبي الخطاب الأسدي بالثورة على العباسيين ، وأخيراً رفض اجتماع (الأبواء) الذي ضم نرعماء بني هاشم للتشاور حول مبايعة محمد ذي لنفس التركية ، كل ذلك يؤكد بعده عن ركوب متن المغالاة والشطط والعنف .

⁵ الدر المختار 3/370 - منتهى الإمدادات لابن المختار الحنبلي 1/329 - كشف القناع 1/704

⁶ د. فامروك عمر: التاريخ الإسلامي ، بيروت ، مؤسسة المطبوعات العربية ، ط 1 ، 980 ص 111

وتؤكد الروايات التاريخية أن الخليفة أبا جعفر المنصور كان يجلب الصادق ويستشيريه ، وقد شجعه وأتباعه على التعمق في الأمور الشرعية ، بل لقد اتصل بالصادق العديد من الفقهاء أمثال مالك بن أنس وأبي حنيفة وأبي ليلى .

يقول المستشرق جيب : ليس هناك برهان قاطع في تلك الفترة على أي انشقاق مذهبي بين السنة والشيعة المعتدلة (الإمامية) ، ولم يكن من يهتم بإحباط نشاطهم أو معاقبتهم بسبب مذهبهم⁷ .
ويؤكد الأستاذ هيدسون أنه كان ينظر إلى جعفر الصادق كإمام من أئمة الحديث والفقهاء ، مثله مثل مالك وأبي حنيفة والأوزاعي⁸ .

ويقول المفكر اللبناني الفضل شلق : كاد الاتجاه الشيعي أن يصبح مذهباً خامساً إلى جوار المذاهب السنية الأربعة لولا الخلاف المملوكي الإلخاني .

ويقول الدكتور وجيه كوثراني : جرت محاولة للتوفيق بين السنة والشيعة على يد قائد عسكري طموح هو نادر شاه حاكم إيران إذ طرح المذكور صيغة توحيدية سنية شيعية ، وذلك بإدراج الفقه الجعفري كواحد من المذاهب الإسلامية التي تصحح خمسة ، لكن السلطان العثماني مرفض الأمر لأن ذلك يسحب الشرعية التي يمتانرها ، وهكذا ذهبت الفرصة الذهبية بين مرياح الإيديولوجيا والسياسة⁹ .

⁷ H.gibb :government and Islam . VIII , P , 1118

⁸ د فامروق عمر المرجع السابق ص 114

⁹ د . وجيه كوثراني : صورة الدولة السلطانية في الوعي التاريخي العربي ، جدلية الوحدة والتعدد ، مجلة الاجتهاد ،

بيروت ، عدد 23 لعام 994 ص 185

فالمشجرة الملعونة (السياسة) هي التي فعلت فعلتها ومنزقت الشمل وأحدثت الخرق في صفوف أهل القبلة وفيما يلي : الجدول الذي قدمه الدكتور محمد جابر الأنصاري عن تضاميرس الفكر الإسلامي واتجاهاته ونرجو التركيز على موقع الشيعة من هذا الجدول ¹⁰ .

أهل الشرك	مخففة المعكر	أهل التأويل الباطني	أهل التأويل العقلي	أهل الرأي	لنزوم الحد
الزندقة	الحلولية	الإسماعيلية	المعتزلة	الحنفية	أهل الحديث
الردة	التقصص	وفروعها	الفلاسفة الإسلاميون	الأشعرية	الحنابلة
الكفر	الناسخ	الصوفية المغالبيه	معتزلة الشيعة	الماتريدية	المالكية
الإلحاد	تحريم ما أحل الله		الشيعة الإمامية	الغزالي	الصفائيه
الدهرية	أوتحليل ما حرم		الصوفية العقلية	الشيعة	الظاهرية
إنكار النبوة				الزيدية	ابن تيميه

ومن جهة أخرى نعرض لرأي البغدادي الذي يقول : وإن كان بدعته من جنس بدعة المعتزلة أو الخوارج أو الرافضة الإمامية أو الزيدية فهو من الأمة في بعض الأحكام وليس من الأمة في أحكام سواها ¹¹ ، فالمعيار هنا البدعة وقد شملت أوائل أهل السنة أي المعتزلة وكان تقويم الشيعة من داخل الأمة .
ويذكر جولد تسيهر : أنه ما من أحد من الشيعة ينكسر السنة النبوية ، بل هم يقرون بالسنة التي حملها أهل البيت ؟ ¹² .

¹⁰ د . محمد جابر الأنصاري : الفكر الإسلامي وصراع الأضداد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 2 ، 989

¹¹ عبد القادر البغدادي : الفرق بين الفرق ، طبعة بيروت ص 10

¹² جولد تسيهر Muhammad and Islam , p 254 وانظر آدم ميتنر : الحضارة الإسلامية ، بيروت ج 1 ص 144

وقد خلف لنا تار يخ الفكر الإسلامي مناظرات جسرت بين السرانري المنكر للنبوة ، وبين أعلام المذهب الإسماعيلي ، مما يدل على أن هذا التيامر (الإيماني الباطني) تصدى من موقعه من دائرة الإيمان لتيامر الإلحاد¹³ .

والخلاصة ، فالأمة هي حجر الأساس ، وفتها ومصلاحتها يجب أن يعلو كل اعتبار ، قال تعالى : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الانبيا: 92) فقد قرنت الآية الكريمة الإلحاق بعبادة الله ووحدة الأمة .

لقد تصاعدت في الآونة الأخيرة بعض الألسن الحداد تحاول التفرقة في صفوف أهل القبلة ، وقد استطاعت أمتنا في ماضيها تجاوز هذه الأقاويل ، بل إن هذه المهاترات كانت تحدث في إطار المذهب الواحد ، فقد أفتى أحد فقهاء الشافعية بأن الطعام إذا اختلط بالنبيد يرمى لكلب أو حنفي ، وأفتى حنفي بعدم حل الزواج من شافعية¹⁴ .

ولاشك أن هنالك بعض القضايا المتعلقة مثل الإمام الغائب والتقنية وغيرها ، ففكرة الإمام الغائب لا تختلف من الناحية الموضوعية عن فكرة المهدي التي يؤمن بها فريق من أهل السنة استناداً إلى بعض أحاديث الأحاد¹⁵ .

ومسألة التقية هي التعامل بالظاهر خلاف الباطن فقد فعل ذلك الصحابي عمار بن ياسر عندما تعرض للتعذيب ، وكم هم أهل السنة الذين يلجؤون إلى الظاهر خشية ظلم حكاهم وعسفهم . لقد تفتح وعي هذه الأمة على هذا الفجر الأريج منذ صدور الصحيفة - ميثاق الرسول ، وأول دستور لحقوق الإنسان فقد نصت المادة الأولى منها على ما يلي : هذا كتاب من محمد بين المؤمنين من قريش وأهل يشرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة دون الناس¹⁶ .

¹³ د . الأنصاري : الفكر العربي وصراع الأضداد ص 12

¹⁴ الأستاذ فهمي هويدي : أنزمة الوعي الديني ، صنعاء ، دار الحكمة .

¹⁵ هويدي : المرجع السابق ص 288

¹⁶ د . برهان نزيق : الصحيفة ، الميثاق ، أول دستور لحقوق الإنسان ، دمشق ، دار معد ، دار النوير 996 ، ص 385

فألذنين اتبعوا المهاجرين وأهل يشرب لم يكونوا مؤمنين ، ومع ذلك اعتبروا من أهل الصحيفة وعقد الصحيفة الذي أقام الدولة في المدينة هو عقد مدني قوامه الوطن والمصلحة .

وبعد إلغاء قانون الملة في الدولة العثمانية أصبح التنظيم السياسي يقوم على دعامة المواطنة ، ولقد تأصل حديثاً هذا المبدأ في غالبية الدول العربية .

يذكر لنا الأستاذ وليام سليمان أنه شاهد مخطوطاً فريداً في دير سانت كاترين كتب في القرن الثامن والتاسع الميلادي ، وهو مخطوط للعهد الجديد (الإنجيل) اسمه مصحف ، وكل سفر منه يبدأ باسم الله الرحمن الرحيم ، وهذا الاحترام المتبادل بين الدينين الإسلامي والمسيحي دفع المسلمين لصوم العذراء .

بل لقد أعد الشاعر أحمد شوقي دعاءً موحداً ليتلى في المساجد والكنائس¹⁷ .

وهذه وجهة ومبتغى الثورات في سوريا على المستعمر الفرنسي : ثورة الغوطة - ثورة جبل الدرونر - ثورة حماه - ثورة ابراهيم هنانو بالتحالف مع الشيخ صالح العلي وقادة جبل صلاح الدين - المحفة (جبل صهيون) .

ليست الكبيرة أن ينظر رجل من ثقب باب ليطلع على حرمت البيت وليكن - كما قال الشيخ شلتوت إمام الأنهر - الكبيرة الجسيمة أن تفتح أميركاً ثقباً كبيراً في الوطن العربي للمتجسس على كل ما فيه .

إذن فالأولوية أن ندافع عن مقدسات هذه الأمة التي اعترها التعب وأنهمكها الضياع والنصب وتوالت عليها الهزائم ، وعم بها العجز والضعف والتواكل ، فمن قتل في سبيل دينه فهو شهيد ، ومن قتل في سبيل أرضه فهو شهيد ، ومن قتل في سبيل ماله فهو شهيد (حديث نبوي)

لقد استبيحت حرمت العرب واحتلت أمراضهم ، ونهبت ثرواتهم ، وانتهكت أعراضهم وديارهم وحرمتهم ، وقتلت نساؤهم وأطفالهم .

¹⁷ الهوية والتراث ، مجموعة مؤلفين ، بيروت ، دار الكلمة للنشر ، ط1 982 ، ص 83

لقد تكلم آباؤنا عن الفرق بين الفُسرُق ، وعلينا أن نتكلم عن الجمع بين الفرق ، لقد تكلم
أجدادنا عن الفرقة الناجية ، وعلينا أن نتكلم عن الأمة العربية الناجية في ثرواتها وحضارتها
وثقافتها وقيمها وأرضها .

اللاذقية

المحامي الدكتور برهان زريق